قصة

الركاز[1]

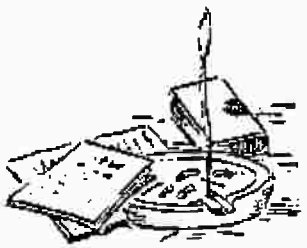

للأستاذ ابراهيم الأبياري

كانت طريقاً عامرة بالسابلة ، لا تكاد تمضي فيها بعيداً حتى ترى عن الشمال أو اليمين أزقة ناشطة[2] والى المنصف منها مُنقبة[3] غير نافذة ، تنشط من تلك الطريق الرئيسية ، تقف بعد خطوات قليلة فيها تجاه نشز يعلو الأرض بأشبار ، قد استوى من لبنات وأحجار ، هي كل ما خلفه الهادم من منزل صغير ، كان هذا النشز رقعته .

وإلى زاوية يحتضنها جداران قد نقرت الثقوب والنقر فيهما أفواهها ، جلس الفتى « محمود » على قطع من فرش مختلفة لايمت بعضها الى بعض بصلة . فهذه من حصير ، وتلك من ثوب خلق ، وثالثة من فراء . أما تلك القطعة التي كان يخص بها نفسه في جلوسه ، فكانت كما يحكي ، عزيزة عليه . أليست البقية الباقية من تلك الطنفسة التي كانت تحت سرير أبيه والتي ورثها أبوه عن جده ؟ وهي دليل عنده على أن الأسرة كانت على شيء من الثراء وشيء من الجاه .

وفوق الفتى « محمود » عريش قد اصطنعه ، يمنع عنه الشمس . أما المطر لما كان لذلك العريش بدفعه بداً ، ولم يكن أمام « محمود » مع صيب الماء إلا أن ينحدر الى مدخل بيت الى جانبه ، يجد فيه مستكنه حتى تنقشع السماء .

كان هذا الركن على هذا النشز تحت هذه الثلة حانوت « محمود » وسكنه ، يستقبل فيه مع الصباح جماعات الأولاد والنساء والرجال بعراقدهم « البترولية » للاصلاح ، أو للافادة من خبرته التي ذاعت وشاعت .

ويهجع فيه مع الليل بعد أن ينفض السامرون من حوله ، وقد سمعوا شيئاً من قصص الأبطال وأحاديث الشجعان ، التي كان « محمود » يحتفظ بالكثير من كتبها في صندوق

---

(١) الركاز : المال المدفون (٢) الناشطة : الطريق يأخذ من الطريق الاعظم (٣) المنقبة : الطريق المنبثقة عن الدائرين .

صغير ، جعل منه من النهار مقعداً ، إن ألمّ به زائر ذو بال ، ومع الليل مكاناً لمصباحه الصغير ، يقرأ في ضوئه لهؤلاء الذين يفدون اليه ويجلسون محدقين به واعين ساغين . حتى إذا انتهى إلى حيث يريد طوى الكتاب ، وأدار عليهم أكواب الشاي ، فشربوا وانصرفوا .

كان الفتى كتوماً كما كان متلافاً ، ما انضمت يده على شيء بياض النهار إلا صغرت منه قبل مطلع الشمس الثانية ، وكان كريماً مع صعلكته ، فما فعدته رفيقة حال إلا عادت بدرهم في يمناها والمرقد معافى في يسراها . وكان حتى الآن يأبى أن يعمل لمن يحقر من شأنه ويهون من أمره . وكان متفلسفاً له في الوجود رأي فيه غلو وإغراق ، ولكنه كان مقبولاً من مثله .

ولو أن الدراسة امتدت به ، ولم يقطع عليه موت أبيه الطريق ، لرأيناه في غير هذا المكان وقد حذق الحرفة في عام وبعض عام ، وعال أمه أعواماً على قدر ما أوتي من قوة وحيلة فاتت عنه راضية . ولم تنس قبل أن تسلم روحها أن تفضي اليه بخبيئة نفسها .

ورث الفتى البيت وحيداً ، وكان يفل له الى حرفته قروشاً من حجرات كان يسكنها أسرتان أو ثلاث . ولم يشفق الجيران على الفتى كثيراً ، فقد كان في حسبانهم مجدوداً . ورث الدار بما فيها ، وهو إلى ذلك ممّن تفيض عليه يده والدار بما يكفل له حياة فوق حياتهم .

رأى الجيران الفتى بعد موت أمه لا يبرح الدار الى عمله ، فظنوه حزيناً ، وقدروا لذلك أياماً تنقضي . فلما انقضت الأيام ولم يبرح ، دهشوا .

ورأوه يطلب الى القطان في رفق أن ينزحوا من الدار ، ولما لم يجبوه الى ما طلب أعنف لهم ، فدهشوا .

ورأوه ينقض البيت لبنة لبنة ، وكلما كوّم كومة باعها . فظنوه يريد ان يستبدل بالدار داراً مكانها اجمل وأنقى . فلم يدهشوا .

ورأوه بعد ان أتى على الدار كلها قد نحت لنفسه من بقايا انقاضها ذلك الكنز يجلس الى ناصية منه ، فقالوا به مسّاً من جن . ولم يعيدوا عليه السؤال بعد ما لقي بعضهم منه أذى وضراً في ذلك . فرضوه على حاله تلك ورضيهم . وكان سخي اليد ، فمدوا إليه أيديهم بالعون .

وما غير الفتى ان بنى لفتاة قريبة عن المدينة ، فقذفت بها الايام إليه ، فأنس بها وأنست به ، وحملت عنه عبء الضيفان ، ومؤونة كان يحملها الجيران . وزاد الفتى في بيته فأسدل

ستراً من أثواب مرقوعة . ومضى فيما هو فيه . ولم يرَ الناس جديداً غير هذه الزوجة . وما هي الا أيام حتى عرفتهم وعرفوها ، وجلست إليهم وجلسوا إليها ، وجرت الامور على العهد بها من قبل عما احتجب عنهم الفتى ، ولا فاق بهم مجلسه ، ولا أرضى ستره دونهم ليلة.

غير أنهم رأوا الفتى نشاطاً جديداً تسحبه فيه زوجه . رأوها في المزيل الاخير من الليل يحتضان الجدران المحيطة ، ويتحسسان أماكن منها ، فذكروا أيامه الماضية يوم بدأ يخلص من داره فاستعاذوا بالله وسألوه للفتى رشداً ، مخافة أن ينال جدرانهم بسوء ، فيهدم عليهم دورهم بعد أن هدم داره .

ولكن عجوزاً في الحي استطاعت أن تخلو إلى الزوج ، وكانت قد رمتها في الوضع أياماً ، فعرفت منها ما يختفيان وما يعملان له سواد الليل ، منصرف الناس عنهما .

لقد انطوت صدور الجدر على سر قديم حمله الأبناء عن الآباء جيلاً بعد جيل . ولم يحاول أحد أن يستنطق الجدر عما ضمت ، ولم تخرج هي عن صمتها فتبوح بذات نفسها .

طمعت العجوز فيما طمع فيه الفتى والزوج ، وباتت ترقبهما على خيفة ، تلقن عن الزوجة وتارها كلما أصابتها في خلوة ، وتحذر الفتى ولا تتصل به ثم يخبرها الطمع فتصعد للجيران تزجرهم وتنهاهم عن الخوض في شأن الفتى ، أو عن أن يعرضوا له بسوء .

وامتدت يد الفتى في بعض ما امتدت له إلى حجر ليس بالصغير ، في تلك الزاوية التي يهجع إليها هو وزوجه وصغيرهما . ولم يدر أنه حين فعل ، خلى بين الحجر وبين السقوط .

كانت ليلة النصف من شعبان . واجتمع السامرون بالفتى ففقرأ لهم ما قرأ . وشربوا معه الشاي بعد أن ذاقوا قطعاً من الحلوى . وقبل أن ينصرفوا سألهم أن يقرءوا معه الدعاء فقرءوه . وكانوا يعرفون الفتى لا يدين ، فتركوه مغتبطين بجديد أمره ، ولكل في هذا ظن وتأويل .

آوى الفتى إلى جانب زوجه ، ومن بينهما صغيرهما . وهو يرى أن هذا الكنز الذي أجنته بطون الجدر قد آن أوان كشفه ، وأنه لم يبق عليه إلا أن يتحسس ما دون الحجر في مساء غد . وحسبه ما عانى في هدم الدار وسكنى العراء . وأخذ يعود بالقوم على أب وجد لم يحملا عنه هذا العبء ، ولم يرزآ مثل شجاعته . ذلك ما همست به نفس الفتى وأخذ يحدث به زوجه وكان الاعياء قد بلغ منه كلاماً ، ومنها استماعاً مغرقاً في نوم الثمل بقية الفجر . استيقظ الجيران فرأوا مأمومين (١) بحجر ، ورأوا صغيراً عند قدميهما يعبث بقطع من الذهب البراق وسرعان ما قضى الصغير بعد أيام ، لأن الذهب الذي أعيا أباه ، لم يكفل له من رعاه .

(١) مأمومين : أي أصاب الحجر أم رأسه